سينمائية عراقية تواجه المسافة بينها وبين وطنها بالكاميرا

سما وهام: أتعامل مع فكرة الغربة كميزة وحافز

لا يتـرك المهاجرون أوطانهم مهما ابتعدوا عنها، فتعيش في دواخلهم على مـرّ الزمن، وتنتقل إلى أبنائهم جيلا بعـد آخر. وللمبدعين في هذا المجال شأن خاص، كونهم يترجمون هذا الانتماء والتمسك بالجذور إلى مجموعة مـن الأعمال الفنية التي تخلد هذه المعاني والقيم السـامية. عالمنا العربي مليء بقصص الهجرة التي عاشـها كثير من أناسه قاصدين أماكن أكثر أمنا نفسـيا لتحقيق أحلامهم، منهم السينمائية العراقية سما وهام، التي خطت لنفسـها طريقا أوصلها إلى السينما العالمية. "العرب" كان لها هذا الحوار مع الفنانة.

نضال قوشحة
كاتب سوري

الحنـين إلى العـراق كان ديدن الحياة التي تعيشـها السـينمائية العراقية سما وهام، بناسـه وأجوائـه وحكاياته وحتى صخبـه ومشـكلاته المزمنـة. كان الرحيل مبكـرا عنه، بعد عـام واحد مـن الولادة، لكـن سـنين الاغتـراب لـم تطفئ جذوة الانتمـاء إليـه. لتغـدو حياتها سلسـلة متدفقـة مـن المتغيرات الجوهريـة، فبعد مرحلة الاغتـراب، كانت الدراسـة الأولى في أبوظبي، وهنا مكمن وشـرارة الشغف الإبداعـي، فكانـت البدايـة فـي أشـعار مراهقـة وقصـص قصيـرة نشـرت فـي بعض الدرويات. ثم كانت محطة الدراسـة التخصصيـة التـي اختارت لها هندسـة العمارة في الجامعـة اللبنانية الأميركية في لبنان.

> الأفكار والمواضيع التي قد تخطر لنا قد تم تقديمها، ومهمة المبدع دائما أن يبحث عن طرح جديد

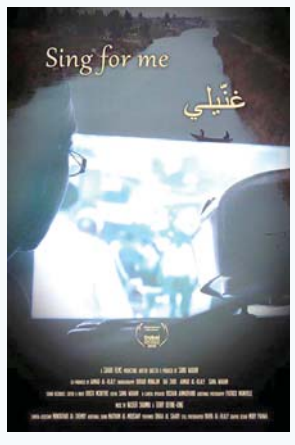

خلال وجودهـا في لبنان، ارتسـمت أحلامها الإبداعية فـي تعلم فن التصوير الضوئـي عند بسـام لحود والموسـيقى عند جوزيـف خليفة كفضـاء فني جديد. ولم تكتف بدراسـة العمارة والموسـيقى وفن التصويـر الضوئي، فمـع وصولها إلـى تورنتو في كنـدا بعـد أن وصلتها مهاجـرة مع أسـرتها، بدأت بدراسـة فن الإخراج والتصويـر الضوئي في جامعة جورج بـروان. وتخرجت بصناعة الأفلام الوثائقية مـن جامعة شـيريدان ثم على شهادة الماجستير في الإخراج السينمائي من جامعة يورك الكندية في تورنتو.

سـنوات الاغتراب الطويلة، وقسـوة البعـد الجغرافـي لـم تطفئ فـي روحها جـذوة الانتماء إلى العراق، خاصة كونها مبدعـة فيمكنها أن تقول ما لا يسـتطيع غيرها قوله.

مواجهة المسافة

■ "**العـرب**": أنت من العراق، المنطقة صاحبة المخزون الهائل من الحضارة والمعرفة والتاريخ، وتعيشين على الطرف الآخر، حيث الأمة الجديدة مالكـة العلـم والتقانة، كيـف تتعاملين مع هذه الحالة الماضوية والمعاصرة في حياتك الإبداعية؟

● **سـما وهام**: الهجرة ومحاولة الاندماج أو حتـى التعايـش مع تفاصيـل الحياة التي لا تشبهنا، تضع المغترب أمام مفترق طرق دائم. فالمهجر يفتح آفاقا تُمكن المبدع من العمل والدراسـة والتعبير عن رؤيته بحُرية، بعيـدا عن الضغـوط والمعوقات السياسية والطائفية أو الاجتماعية التي كان مـن الممكن أن تعرقلـه أو حتى تغير مصيـره في بلـده الأم، وخاصـة في ظل الظروف التي تعيشـها دولنا اليوم، ومنذ عقود.

لكننـا مسـكونون بهـا رغمـا عنا، بهمومها القديمة والمسـتجدة، بيومياتها والحنين الدائم إلى كل ما يشير إليها. أنا في الطـرف الآخر البعيد عـن هذه البلاد التي تجتاح أفكاري باسـتمرار، وتتسلل بشـكل أو بآخر إلى قصة أي مشروع. أو عمل. أبدأ بكتابته وتطويره، لكنها البلاد والأزمنـة التي شـكلت معالـم وجداني. كانت هذه المسـافات والحالة الإشـكالية متعبـة لي في الماضي، حتى بدأتُ أتعامل معها كميزة وحافز لتمثيل المكان والثقافة التي آتـي منها، حيثما ذهبـت، وللكتابة والتصوير والعمل عما يعبر عني وعنها.

■ "**العـرب**": سـما وهـام معنيـة بتفاصيل جغرافيـة الوطن، وتبـدو كذلك معنيـة بالعمق التاريخي للمنطقـة، فرغم خطورة المنطقة خلال عام 2014 والعنف الذي كان موجودا في العراق وسـيطرة قوى البطش والإرهاب على الكثير من مناطقه، فإنهـا ذهبت إليه، لتصور فيلما وثائقيا عـن طيف إنسـاني عميق الوجـود تلتقي عنده حضارات وأطياف وذكريات.

الفيلم كان بعنوان "غنيلي" ويتحدث عن المندائيين في العراق وهم طائفة قديمة موغلـة في التاريخ. وكأنـه مقاومة لروح العصر التـي تحاول عبـر العولمة فرض شرطيتها. لغة العولمة الثقافية تفرض على العالم نمطا ومشهدا حضاريا واحدا، لكن المبدعـين يقاومون، وكنـت أحدهم عندما قدمت فيلم "غنيلي"، الذي تناول شـريحة بشرية موغلة في القدم والحضارة ليشكل الفيلـم أيقونة في زخـم الأفلام التي تقدم الآن. كيف تنظريـن إلى أهمية تقديم هذه الأفكار في سياقات محددة؟

● **سـما وهام**: "غنيلـي" كان رحلة بحث عـن مفهوم الوطـن والانتمـاء والهوية، بمواجهـة هـذه المسـافة القاسـية التي تفصلني وجيلي عن وطن، حلم به أجدادنا الذيـن واجهـوا الأطماع الاسـتعمارية، وآمنـوا بأحقيتهـم بـه، وبقدرتهم على الانتصـار له، بقيـم ومفاهيم لـم تنجح بتحصينهم من ألف شـكل جديد اتخذته هذه الأطمـاع والمصالـح الدولية. كانت رحلـة العمل على هذا الفيلم شـاقة على عـدة أصعـدة، وطويلة نسـبيا بسـبب تصويـره في ثـلاث دول مختلفة، أحدها العـراق في ظـل ظرف حربه مـع داعش عـام 2014، بالإضافـة إلى ضعـف الدعم الإنتاجي للفيلـم غالبا لطرحه التجريبي البعيد عن النمطية التقليدية.

لكـن الصعوبة الأكبر كانـت معالجة كل عناصـر القصـة، والتعامـل الفكري والعاطفي مع المشـاهد في غرفة المونتاج، حيث كان لكل مشـهد خصوصيته، ودوره في هذه الرحلـة الافتراضية لزمن مضى، وبلد لم يعد كما كان.

يهمني مضمون العمل بشكل أساسي، بالإضافة إلى البحث عن لغة لكل موضوع ومزيـج جديـد لألـوان السـرد المختلفة، يتفاعـل مع القصـة ويضيف بُعـدا آخر لتفاصيـل العمـل. هنـاك أمثلـة عديدة لأعمـال سـينمائية "خرجت عـن النص" وصنعت لنفسها مكانا بعيدا عن المألوف والمشـهد الموحـد، لكنها مهـدت الطريق لفكـرة التجربـة المسـتقلة التـي تصنع نصها وخطها الخـاص. وغالبا ما تتفرد هذه الأعمال بسـرد طروحـات وأفكار أو تأريخ وقائع وأزمنة مهمة نحتاج لتأملها ودراسـتها بعيـدا عـن تعسـف الأنماط السائدة.

الاغتراب وحكاياته

■ "**العرب**": المغتربون يعيشـون حياة قاسية، فهي تضرسهم بين زمن ومكان كان وآخر معاش يحمـل الحنين والألم، بين حلم كان وآخر مأمول يحمل المسـتقبل. كيف ترين غربتك وحياتك بين حنـين للوطـن الأم، وتلهف انتظـار الغد، الذي يقسـو على المغترب بطرح فكرة اللاعودة؟ كيف يمكنك كمبدعة فك طلاسم هذه المعضلة؟

● **سـما وهام**: قلما يشاهد أهلي القنوات المحلية في مدينتنا في ضواحي تورونتو بكنـدا، حيث نقطن منذ حوالـي العقدين من الزمن. غالبا ما تسـمع صوت البرامج والإذاعـات العربيـة فـي معظـم بيـوت المهاجريـن العرب هنا وبـدول الاغتراب، إلـى درجـة أن بعضنـا لا يعـرف آخـر مسـتجدات محيطه بقدر ما يتابع أخبار مسقط رأسه والمنطقة العربية.

لعلـه أمر طبيعـي، لكنـه واقع قاس ويؤثـر سـلبا على قـدرة المغتـرب على الاندماج والتعامل مع مفهوم "اللاعودة" كواقـع، أو مع هويتـه كمواطـن للدولة الجديدة، لا "مغترب". أحاول دائما إعادة تأهيل هذه الحالة وصعوبتها، بتوظيفها كدافـع للعمـل والبحـث المتواصـل عن قصص جديدة، وخواطر مرئية ومسموعة تشـبه أسـئلتي وهواجسـي الوجودية والإنسانية.

قد أكـون فـي حالة سـلام وتعايش اختيـاري مع هذا الشـعور ثقيل الوطأة، لأننـي أحملـه دائمـا حاجتـي للابتكار والتعبير، والبحث عما يشـبهني من لغة وشـجن وأمكنة، فـي كل عمل، قد يختلف شكل أو سـبب الألم الذي يعيشه المغترب عن ذاك الذي يواجهـه أهلنا ومواطنونا في بلادنا ومناطقنـا، لكنني أعتقد بأننا نتشارك الخسـارة نفسـها، كما الحاجة للتعافـي مـن كل مـا عصف بنـا، وعلى الأغلـب نتشـارك نفـس الحنـين ذاتـه للأوطان".

مشاريع سينمائية

■ "**العـرب**": تسعى سـما وهام في ما تقدمه من سينما إلى بناء جسر تواصل إبداعي جديد يتسـق مع رؤاها السـينمائية المختلفة، فتغدو جدلية تقـديم الفكري والجمالي عندها موجودة بشـكل مختلف عما يقدم تقليديا. كيف تقدمين ذلك سينمائيا بحيث تبتعدين عن الاستهلاكي؟

أعمل كأستاذة مساعدة لمادة الإخراج والتصويـر وصناعة الأفلام في الجامعة، وأبدأ معظـم الفصول الدراسـية بتذكير الطـلاب بأن كل الأفـكار والمواضيع التي قـد تخطر أو لا تخطـر لنا على بال قد تم تقديمها وصناعتها مـن قبل، وبأن مهمة المبـدع دائمـا أن يبحث عن طـرح جديد لتقديم هذه الأفكار، ويجد صيغة لا تشبه سابقاتها في النبرة والمعالجة والشكل.

السـينما أرشـيف ثقافـي مرئـيّ ومسـموع لتاريخنا وهمومنا، وانعكاس حتمي لكل ما نعيشـه، أو نحاول إحياءه. لعلهـا كأي فن ودراسـة أو حرفـة اليوم تنساق نحو السـائد، وتعاني من هيمنة صناعة الموضـوع الاسـتهلاكي الجاهز أو معـاد التصنيع، لذلك مـن المهم تقييم التجـارب الفرديـة المهتمـة بالتحديـث والخلـق في اللون والمحتـوى، والتوقف عنـد الأعمـال ذات البعـد والمضمـون، بالأخـص تلـك التـي تناضـل بإمكانات بسـيطة، ولكـن فاعلة ضد سـطوة المادة الإعلامية والسـينمائية المسيرة، وتقاوم السـائد بحثا أو دفاعا علـى هذه الأرض عما قد "يستحق الحياة".

■ "**العـرب**": ما هو جديدك السينمائي؟ وماذا يحمـل مـن رؤى، في عصر يضـج بالمتغيرات اليومية؟

● **سـما وهـام**: بـدأت العمل علـى أكثر من مشـروع منذ عدة سـنوات، وتوقفتُ لفترة لأسباب إنتاجية، إضافة للانشغال بالعمل كمنتجة ومديرة تصوير لأكثر من عمل، تعاونت خلالها مع مخرجين كنديين علـى ثلاثـة أفـلام وثائقيـة طويلة، تم عرضهـا فـي عـدة مهرجانـات أوروبية وشمال أميركية.

لكننـي دائمـا أحـاول العـودة إلى أعمالـي ورؤيتـي الإخراجيـة الخاصة. أقـوم حاليـا بإنهـاء فيلمين متوسـطي الطـول، أحدهما وثائقـي والآخر روائي تجريبي، كما بـدأتُ بكتابة وتطوير أكثر مـن عمـل، تتمحـور مواضيعها بشـكل عام عن الغربة وعواقبها النفسـية، وعن المسافة التي تفصلنا عما يدور في بلادنا الآن تحديدا من أحداث وتغيرات. ولكنني أركز على تجربة المـرأة المغتربة أكثر في هـذه الأعمـال، والعربية تحديـدا، لأنها برأيي تختلف كثيرا عن تجربة الرجل.

المغتربون العرب يواجهون صعوبة في الاندماج و«اللاعودة»

سما وهام

سما وهام فنانة سـينمائية عراقية ولدت في بغـداد، عملت في عدة مواقع إبداعيـة مسـاعدة إنتـاج ومسـاعدة مصور سينمائي ثم حصلت على درجة مديـرة تصويـر سـينمائية وعضوية نقابـة السـينمائيين الكنديـة بدرجة Associate Member، قامـت بكتابـة وإخراج وإنتاج أعمالها الخاصة، بدءا بفيلم وثائقـي قصير أنجزته عام 2000 فـي لبنان عـن عمالة الأطفـال، إضافة إلـى فيلم وثائقـي تجريبي صامت عن آثار الحـرب الأهلية على إحدى مناطق بيـروت التي كانـت تعتبر أحد خطوط التماس في الحرب.

عـام 2008، قدمت فيلمهـا القصير "Unloose".

عـام 2011 قدمـت فيلمهـا القصير "Ramp" أو منحـدر، الـذي عـرض في عـدة مهرجانـات دولية وعربيـة بدءا بمهرجـان "هوت دوكس" السـينمائي الدولي في تورنتو.

عام 2012 أنجـزت فيلمها الوثائقي القصير "Resight" (إعـادة نظر) الذي عـرض في العشـرات مـن المهرجانات حاصدا العديـد من الجوائـز الدولية والترشـيحات، ونال استحسان العديد من النقاد في كندا وأميركا.

بـين عامـي 2013 و2015 أنتجـت وصـورت مجموعـة أفـلام وثائقيـة طويلة بالتعـاون مع عدد من المخرجين الكنديين. في نهايـة عام 2015 أخرجت فيلمها الوثائقـي "غنيلي" الذي عرض فـي العديد مـن المهرجانـات العربية والعالمية منها مهرجان دبي السينمائي الدولـي 2015، ثـم مهرجـان القمـرة السينمائي في البصرة، مهرجان وهران للفيلـم العربي في الجزائـر، مهرجان الإسـكندرية السـينمائي الدولـي، مهرجان السينما الأوروبية المستقلة في باريس، مهرجان ييراپيترا السينمائي الدولـي فـي اليونان، مهرجـان لوس أنجلس السينمائي الدولي في أميركا، مهرجـان الشـرق الأوسـط وشـمال أفريقيا السينمائي الدولي في تورنتو، وغيرها.

وحـاز الفيلـم علـى العديـد مـن الجوائز والترشيحات، قد يكون أهمها جائزة أفضل فيلم وثائقي عربي طويل في مهرجان الإسـكندرية السـينمائي الدولي.

حصلت سـما وهام على 21 جائزة وترشـيحا عـن مجمل أعمالهـا، وهي تعمـل حاليا كأسـتاذة لمـادة الإخراج والتصويـر السـينمائي فـي جامعـة بافالو في ولايـة نيويورك في أميريكا، وتقيـم بـين تورنتـو كنـدا والولايات المتحـدة وتعمـل علـى إنجـاز عـدد من الأفـلام القصيـرة بـين الوثائقية والروائية.

إضافـة للبدء بفيلمـين طويلين من إخراجها وإنتاجها وكتابتها؛ أحدهما وثائقي هجين (روائـي – دوكيودراما) إضافـة إلـى فيلمها الروائـي الطويل الأول.

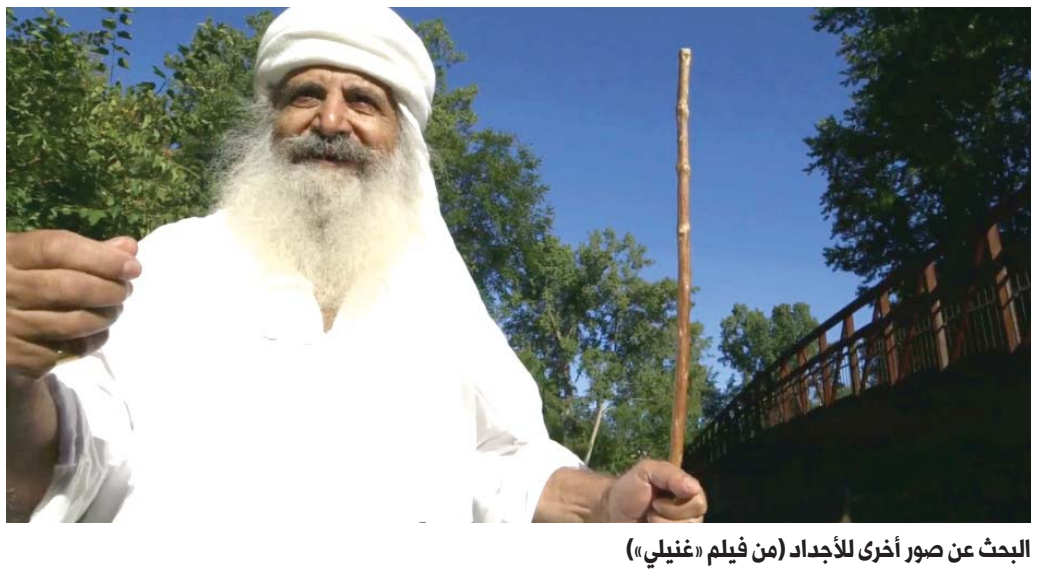

البحث عن صور أخرى للأجداد (من فيلم «غنيلي»)